أسلوب التفكير فى الأزهر

ومنزلته من تطور الفكر البشرى

بقلم الاستاذ أحمد توفيق عياد

المدرس بالليسيه فرانسيه

استعرضنا فى المقالين السابقين[1] أهم المدارس التى نشأت فى الغرب ، وكان لها أثر إيما أثر فى تطور الفكر الأوروبى ؛ وانتهينا من الكلام عن الأفلاطونية الحديثة وأثرها فى العرب بوجه عام ، وأثرها فى التصوف الاسلامى بوجه خاص ؛ وبعد الأفلاطونية الحديثة لم يظهر فى أوربا تفكير مجدد ، وتولاها على العموم عصر مظلم ليس فيه مجال للبحث والتفكير العميق ، إلى أن أنشأ (شرلمان) مدارس تتابع الرجوع إلى الفلسفة اليونانية ؛ ولهذه المدارس تنتسب تسمية العصر بالمدرسى . وبينما كانت أوربا فى غيابة هذا الظلام الدامس إبان القرون الوسطى ، كانت العرب فى أرقى عصر من عصورها الذهبية ؛ فبعد اختلاطهم بالأمم المختلفة ذات الحضارة والنظم السياسية والادارية فى الشام والعراق ومصر — ولاسيما بعد دخولهم فى الأندلس واستقرارهم فيها — أخذوا فى الاهتمام والعناية بالعلوم الفلسفية وسائر العلوم : من طب ، وفلك ، ورياضة ، وتاريخ ، وأدب ؛ ونقلوا أكثر الكتب المعروفة لديهم فيها ؛ ولم يقف عملهم عند حد النقل ، بل بدأ العقل العربى يكمل تطور الفكر الانسانى ؛ وامتزج الدين بالفلسفة كثيراً ، وظهر كثير من الأفذاذ الذين على عقولهم تنقل هذا التطور « كالكندى » وهو أسبق فلاسفة المسلمين ، وهو عربى الأصل دون سواه من فلاسفة العرب ، ويليه « أبو نصر الفارابى » و« ابن سينا » و« الغزالى » وهو إمام التصوف . وظهر منهم فى الأندلس « المجريطى » و« ابن باجة » و« ابن رشد » وغيرهم ؛ وقد ألفوا المؤلفات الضافية فى فروع الفلسفة والعلوم ، مما اتخذه الغربيون أساساً لفلسفتهم فى أوائل نهضتهم ، وظل العرب كذلك قروناً فى نهضتهم هذه ، وانتقل إليهم علم اليونان وعلم الفرس وغيرهم ، حتى أتى عصر النهضة وإحياء العلوم ، فاستمد الغربيون علمهم وفلسفتهم من العرب الذين أخذوا من ذلك الوقت — الذى بدأ الغرب فيه ينتعش —

---

(١) « المعرفة » فى نوفمبر وديسمبر ١٩٣٢

فى التأخر والاضمحلال ، وصار شأن التفكير عند الأمة الاسلامية ـ فى عصور الاضمحلال هذه، منذ أواخر القرن الثامن الهجرى إلى قبيل عصرنا الحاضر ـ شأن التفكير عند الغربيين طوال القرون الوسطى ، وأصبح منذ ذلك الوقت يمتاز الأزهر وغيره من المدارس الاسلامية بما كانت تمتاز به القرون الوسطى عند الغربيين من مميزات ؛ فكان التعليم فى الغالب دينياً خاضعاً كل الخضوع للآراء والمعتقدات الدينية ، وكان التعليم لفظياً كله وليس للعقل فيه نصيب ، لأن التلميذ كان مضطراً إلى قبول ما يعرض عليه كأنه قضيه مسلم بها؛ فهو تعليم تحكمى لامجال فيه للنقد وإعمال الفكر ، « وعود الناس الميل إلى الأمور المجردة المعنوية ، والاستدلال الشكلى العقيم من مقدمات مفروض عدم التفكير فيها وتمحيصها ؛ والتفكير كان استنباطياً كله أساسه القياس المنطقى ، والاعتماد على الحفظ والاستظهار ، لا على الملاحظة والمشاهدة ؛ وأوضح خصائص هذا العصر عند الغربيين إخضاع الفلسفة للاهوت ولم يكن الدين والفلسفة طريقين يوصلان إلى الحق ؛ فالفلسفة هى الدين والدين هو الفلسفة ؛ وكانت وظائف المشتغلين بالفلسفة هى الشرح والتعليق والتعليل للفلسفة القديمة أو لآراء الدين ، ولم تكن هناك حرية فى البحث لقوة السلطة الدينية التى عملت على تحديد سلطة العقل بحدود الدين ، فما أقره الدين لايفكر فيه العقل أو يسلم به ؛ وكل هذه الخصائص ، هى بعينها خصائص الفلسفة الاسلامية ؛ فانه لما انحطت درجة الاشتغال بالعلوم الاسلامية وضعف شأنها ، وكان العلماء المتقدمون قد استوفوا الكلام فيها بمؤلفاتهم ومصنفاتهم المتعددة، لم يجد العلماء المتأخرون لاظهار فضلهم فى التصنيف وانتشار ذكرهم بالتأليف ، إلا أن يعمدوا إلى مابين أيديهم من المؤلفات والمصنفات ، فوضعوا عليها الشروح والتفاسير ، وجاء من بعدهم طبقة من أهل العلم دون طبقتهم فحذوا حذوهم واقتصرت همتهم على شرح ماوضعوه من تلك الشروح وهى الحواشى ، ثم جاء من بعدهم كذلك من اشتغل بوضع الشروح على تلك وهى التقارير ، ثم غطى كل ذلك متون الكتب ، وتضاءل اللباب تحت القشور ، واستحكم التعقيد بذلك وتغلب الابهام، فوقعت الأذهان فى ارتباك ، والعقول فى تشويش ، وتعذر التقاط الفوائد على الطلاب من وراء الاشتغال بها ؛ وساءت بذلك حالة التعليم ، وضاعت الأعمار والأوقات بغير طائل ». (١)

وكانت كل أبحاثهم دائرة حول الأمور الميتافيزيقية دون أن يكون لهم إلمام بالشئون الطبيعية ، وكانوا بمعزل تام عن الحياة الواقعية وما يجرى فيها ، وكانت حقائقهم شكلية ؛ أما النتائج العلمية التى يصلون إليها بعد التجربة والبحث فلم يكونوا يعرفونها ؛ وكان تفكيرهم

(١) رسالة يبرم عن الأزهر ص ٥٤

محصوراً فى دائرة واحدة ، يلف حولها ولا يتعداها ؛ وكان مجهودهم الفكرى منصرفاً إلى مناقشات لفظية ، لا تؤدى إلى نتيجة عملية لها اتصال بالحياة أو بالعالم الخارجى ؛ ويتناقشون فى الألفاظ والتعاريف مناقشة طويلة من غير جدوى ، وطريقتهم المتبعة هى الطريقة الحوارية بالسؤال والجواب ، لا لأجل التعليم الصحيح والتربية العقلية ، وإنما لمجرد التلقين والاستظهار ؛ « ومن حفظ المتون فقد حاز الفنون » .

وكان القياس المنطقى الآلة الكبرى فى المحاجة والجدال ، مقدماته المعتقدات الدينية الاستبدادية ؛ ومجال تفكيرهم لم يكن مجال خلق وابتكار ، ولكنه تفكير فى دائرة محدودة ؛ او تفكير أشبه مايكون بالشعوذة العقلية ، فالفلسفة والآداب لم تكن سوى وسيلة لخدمة تلعتقدات الدينية السائدة ؛ وكان الاهتمام منصرفاً إلى الجدل نفسه لا إلى النتيجة التى قد تؤدى إليها المقدمات ؛ فالغاية هى الاقناع وإلزام الخصم الحجة ، لا الوصول إلى الحقيقة .

هذه هى الحالة العقلية التى كان يشترك الشرق فيها فى عصور اضمحلاله — وما زلنا نئن تحت وطأتها — مع الغرب فى عصر القرون الوسطى . ولقد جدت عوامل كثيرة فى الغرب حملتهم على الخلاص من هذا الجمود العقلى ، وانتهجوا لذلك سبيلا لابد أن نسير وراءه إذا أردنا أن نتخلص من هذه العبودية الفكرية التى نرتطم فيها ؛ ووسيلة النجاة تتلخص فى شىء واحد ، هو تغيير أسلوب التفكير فى الأزهر ، وتكوينه التكوين العلمى الحديث ، وسلوكه طريق البحث العلمى الحديث فى تفكيره ؛ وهذا ما وصل إليه الغربيون بعد جهاد طويل دام قروناً ، ضمن لهم التوفيق فى النهاية وحرية الفكر ، وسداد الرأى .

فاذا استطاع الفكر الأزهرى ألا يثق فى شىء من غير اختبار على ضوء المنطق الصحيح ، وألا يتقبل حقيقة من الحقائق دون أن يزنها بميزان المنطق ، وإذا استطاع أن يحتاط من الأغلاط والأوهام التى يتعرض لها الفكر بطبيعته بسبب الوراثة ، أو بسبب التكوين الطبيعى للفرد ، أو بسبب اللغة وتصاريفها ، وإذا استطاع أن يكون جريئاً يهجم على الآراء والعقائد يبحث فيها ويهضمها ويتمثلها دون أن يتردد فى ذلك من غير ما مبرر ، وإذا استطاع أن يشك فى كل شىء حتى فى أمس الأمور بعقائده وآرائه ونزعاته الموروثة ، ليصل من وراء هذا الشك إلى يقين ثابت يدعمه المنطق الصحيح ، وإيمان وطيد لا يأتيه الباطل ، دون أن يخاف الزيغ والزلل فى شجاعته هذه ، وإذا استطاع أن ينهج هذه السبيل فى دراسته للأشياء ، وفى تمحيصه للحقائق ، وذلك بجمع الوقائع المتعلقة بالموضوع بما يرتبها ويبوبها ، ثم يتناولها واقعة واقعة بالبحث والتمحيص والدحض ، ثم يستنتج منها مايهديه إليه عقله وتفكيره ... إذا استطاع الفكر الأزهرى هذا ، انتقل الأزهر من صبغته القديمة التى تجعله إلى القرون الوسطى أقرب

[البقية على الصفحة ١٢١٦]